بسم الله الرحمن الرحيم

٨٢ ـ كتاب القدر

١ ـ باب * ٦٥٩٤ ـ عن عبدِ اللهِ قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ -وهوَ الصادقُ المصدوق- قال: «إنَّ أحدكم يُجمَعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يوماً، ثم عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثم يكون مُضغةً مثلَ ذلك، ثمَّ يَبعثُ اللهُ مَلَكاً فيُؤمرُ بأربعة: برزقِه وأجَله، وشقيٌّ أو سعيد. ثم ينفخ فيه الرُّوح. فوَ الله إنَّ أحدكم -أو الرجُلَ- ليعملُ بعملِ أهلِ النار، حتى ما يكون بينه وبينَها غيرُ ذراعٍ أو باع، فَيسبِقُ عليه الكتابُ، فيعمَلُ بعمل أهل الجنَّة فيدخلُها. وإن الرجل ليَعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتى ما يكونُ بينَه وبينها غيرُ ذراعٍ أو ذراعين، فيَسبِق عليه الكتاب، فيعمل بعملِ أهل النار فيدخلها».

٦٥٩٥ ـ عن أنس بن مالكٍ رضيَ الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «وكلَ الله بالرحمِ مَلَكاً فيقول: أي ربِّ نُطفةٌ أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يَقضيَ خَلقَها قال: أي ربِّ ذكرٌ أم أنثى، أشَقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق، فما الأجل؟ فيُكتَب كذلك في بطنِ أمِّه».

قال أبو المظفر بن السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.

وقيل أن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها. انتهى.

وأخرج مسلم من طريق طاوس: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر يقول: «قال رسول الله ﷺ: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس».

قلت: والكَيس ضد العجز ومعناه الحذق في الأمور، ويتناول أمور الدنيا والآخرة، ومعناه أن كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته، وإنما جعلها في الحديث غاية لذلك للإشارة إلى أن أفعالنا إن كانت معلومة لنا ومرادة منا فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله، وهذا الذي ذكره طاوس مرفوعاً وموقوفاً مطابق لقوله تعالى {إنا كل شيء خلقناه بقدر} فإن هذه الآية نص في أن الله خالق كل شيء ومقدره وهو أنص من قوله تعالى {خالق كل شيء} وقوله تعالى {والله خلقكم وما تعملون} واشتهر على ألسنة السلف والخلف

أن هذه الآية نزلت في القدرية.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة «جاء مشركو قريش يخاصمون النبي ﷺ في القدر فنزلت».

ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى كما قال تعالى: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم}.

قوله (ثم يكون مضغة مثل ذلك) والمراد مثل مدة الزمان المذكور في الاستحالة، والعلقة: الدم الجامد الغليظ سمي بذلك للرطوبة التي فيه وتعلقه بما مر به، والمضغة قطعة اللحم سميت بذلك لأنها قدر ما يمضع الماضغ.

قوله (فيؤمر بأربعة) في رواية الكشميهني «بأربع» والمعدود إذا أبهم جاز تذكيره وتأنيثه، والمعنى أنه يؤمر بكتب أربعة أشياء من أحوال الجنين، وفي رواية آدم «فيؤمر بأربع كلمات» وكذا للأكثر، والمراد بالكلمات القضايا المقدرة، وكل قضية تسمى كلمة.

والمراد أنه يكتب لكل أحد إما السعادة وإما الشقاء، ولا يكتبهما لواحد معاً، وإن أمكن وجودهما منه لأن الحكم إذا اجتمعا للأغلب وإذا ترتبا فللخاتمة فلذلك اقتصر على أربع وإلا لقال خمس، والمراد من كتابة الرزق تقديرة قليلاً أو كثيرا وصفته حراماً أو حلالا، وبالأجل هل هو طويل أو قصير، وبالعمل هو صالح أو فاسد.

ومعنى قوله شقي أو سعيد أن الملك يكتب إحدى الكلمتين كأن يكتب مثلاً أجل هذا الجنين كذا ورزقه كذا وعمله كذا وهو شقي باعتبار ما يختم له وسعيد باعتبار ما يختم له كما دل عليه بقية الخبر.

قوله (بعمل أهل النار) الباء زائدة والأصل يعمل عمل أهل النار.

أو ضمِّن «يعمل» معنى يتلبس في عمله بعمل أهل النار، وظاهره أنه يعمل بذلك حقيقة ويختم له بعكسه، وسيأتي في حديث سهل بلفظ «ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس» وهو محمول على المنافق والمرائي، بخلاف حديث الباب فإنه يتعلق بسوء الخاتمة.

قوله (بعمل أهل الجنة) يعني من الطاعات الاعتقادية والقولية والفعلية، ثم يحتمل أن الحفظة تكتب ذلك ويقبل بعضها ويرد بعضها، ويحتمل أن تقع الكتابة ثم تمحى وأما القبول فيتوقف على الخاتمة.

قوله (فيسبق عليه الكتاب) والمراد بسبق الكتاب سبق ما تضمنه على حذف مضاف أو المراد المكتوب والمعنى أنه يتعارض عمله في اقتضاء السعادة والمكتوب في اقتضاء الشقاوة فيتحقق مقتضى المكتوب، فعبر عن ذلك بالسبق لأن السابق يحصل مراده دون المسبوق ولأنه لو تمثل العمل والكتاب شخصين ساعيين لظفر شخص الكتاب وغلب شخص العمل، ووقع في

حديث أبي هريرة عند مسلم «وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة».

قال الخطابي: وفيه أن السعيد قد يشقى وأن الشقي قد يسعد لكن بالنسبة إلى الأعمال الظاهرة وأما ما في علم الله تعالى فلا يتغير، وفيه أن الاعتبار بالخاتمة.

قال ابن أبي جمرة نفع الله به: هذه التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال لأنهم لا يدرون بما يختم لهم، وفيه أن عموم مثل قوله تعالى {من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم} الآية مخصوص بمن مات على ذلك وأن من عمل عمل السعادة وختم له بالشقاء فهو في طول عمره عند الله شقي وبالعكس وما ورد مما يخالفه يؤول إلى هذا، وفيه التنبيه على صدق البعث بعد الموت لأن من قدر على خلق الشخص من ماء مهين ثم نقله إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم ينفخ الروح فهو قادر على نفخ الروح بعد أن يصير تراباً ويجمع أجزاءه بعد أن يفرقها، ولقد كان قادراً على أن يخلقه دفعة واحدة ولكن اقتضت الحكمة بنقله في الأطوار رفقاً بالأم لأنها لم تكن معتادة فكانت المشقة تعظم عليها فهيأه في بطنها بالتدريج إلى أن تكامل، ومن تأمل أصل خلقه من نطفة وتنقله في تلك الأطوار إلى أن صار إنساناً جميل الصورة مفضلاً بالعقل والفهم والنطق كان حقاً عليه أن يشكر من أنشأه وهيأه، ويعبده حق عبادته ويطيعه ولا يعصيه، وفيه أن في تقدير الأعمال ما هو سابق ولاحق، فالسابق مافي علم الله تعالى واللاحق ما يقدر على الجنين في بطن أمه كما وقع في الحديث، واستدل به على أن السقط بعد الأربعة أشهر ي ﷺ عليه لأنه وقت نفخ الروح فيه، وهو منقول عن القديم للشافعي والمشهور عن أحمد واسحق، وعن أحمد: إذا بلغ أربعة أشهر وعشراً ففي تلك العشر ينفخ فيه الروح وي ﷺ عليه، والراجح عند الشافعية أنه لا بد من وجود الروح وهو الجديد، وقد قالوا فإذا بكى أو اختلج أوتنفس ثم بطل ذلك ﷺ عليه وإلا فلا، وفيه الحث القوي على القناعة، والزجر الشديد عن الحرص، لأن الرزق إذا كان قد سبق تقديره لم يغن التمني في طلبه وإنما شرع الاكتساب لأنه من جملة الأسباب التي اقتضتها الحكمة في دار الدنيا، وفيه أن الأعمال سبب دخول الجنة أو النار ولا يعارض ذلك حديث «لن يُدْخل أحداً منكم الجنة عمله»، وفيه الحث على الاستعاذة بالله تعالى من سوء الخاتمة، وقد عمل به جمع جم من السلف وأئمة الخلف، وأما ما قال عبد الحق في «كتاب العاقبة» أن سوء الخاتمة لا يقع لمن استقام باطنه وصلح ظاهره وإنما يقع لمن في طويته فساد أو ارتياب ويكثر وقوعه للمصرّ على الكبائر والمجترىء على العظائم فيهجم عليه الموت بغتة فيصطلمه الشيطان عند تلك

الصدمة، فقد يكون ذلك سبباً لسوء الخاتمة نسأل الله السلامة، فهو محمول على الأكثر الأغلب، وفيه أن قدرة الله تعالى لا يوجبها شيء من الأسباب إلا بمشيئته، فإنه لم يجعل الجماع علة للولد لأن الجماع قد يحصل ولا يكون الولد حتى يشاء الله ذلك، وفيه أن الشيء الكثيف يحتاج إلى طول الزمان بخلاف اللطيف، ولذلك طالت المدة في أطوار الجنين حتى حصل تخليقه بخلاف نفخ الروح، ولذلك لما خلق الله الأرض أولاً عمد إلى السماء فسواها وترك الأرض لكثافتها بغير فتق ثم فتقتا معا، ولما خلق آدم فصوره من الماء والطين تركه مدة ثم نفخ فيه الروح، وفيه أن الله يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات لتصريح الخبر بأنه يأمر بكتابة أحوال الشخص مفصلة، وفيه أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات بمعنى أنه خالقها ومقدرها لا أنه يحبها ويرضاها، وفيه أن جميع الخير والشر بتقدير الله تعالى وإيجاده.

وقد أخرج أحمد وأبو يعلى من طريق أيوب بن زياد عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض فقلت أوصني؟ فقال: إنك لن تطعم طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره وهو أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك الحديث وفيه «وإن مت ولست على ذلك دخلت النار».

وفي الحديث أن الأقدار غالبة والعاقبة غائبة فلا ينبغي لأحد أن يغتر بظاهر الحال، ومن ثم شرع الدعاء بالثبات على الدين وبحسن الخاتمة.

٢ ـ باب ـ جَفَّ القلم على علم الله وقوله

{وأضلَّه الله على علِم}/الجاثية:٢٣/.

وقال أبو هريرة: «قال لي النبيُّ ﷺ: جَفَ القلم بما أنتَ لاق. وقال ابن عباس: {لها سابقون}/المؤمنون:٦١/: سبقَت لهم السعادة.

٦٥٦٩ ـ عن عِمرانَ بن حُصَينٍ قال: «قال رجلٌ يا رسولَ الله أيُعرَفَ أهلُ الجنةِ من أهلِ النار. قال: نعم. قال: فلمَ يَعملُ العاملون؟. قال: كلٌّ يعمل لما خُلِقَ له، أو لما يُيسرَ له».

[الحديث ٦٥٩٦ – طرفه في: ٧٥٥١]

قوله (جف القلم) أي فرغت الكتابة إشارة إلى أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة لأن الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم.

وقال عياض: معنى جف القلم أي لم يكتب بعد ذلك شيئاً. وكتاب الله ولوحه وقلمه من غيبه ومن علمه الذي يلزمنا الإيمان به، ولا يلزمنا معرفة صفته، وإنما خوطبنا بما عهدنا فيما

فرغنا من كتابته أن القلم يصير جافاً للاستغناء عنه.

قوله (على علم الله) أي على حكمه لأن معلومه لا بد أن يقع، فعلمه بمعلوم يستلزم الحكم بوقوعه، ويقال أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان للمأمون سأل الحسين بن الفضل عن قوله تعالى: {كل يوم هو في شأن} مع هذا الحديث، فأجاب: هي شؤون يبديها لا شؤون يبتديها؛ فقام إليه وقبّل رأسه.

قوله (أيعرف أهل الجنة من أهل النار) والمراد بالسؤال معرفة الملائكة أو من أطلعه الله على ذلك؛ وأما معرفة العالم أو من شاهده فإنما يعرف بالعمل.

قوله (قال: كل يعمل لما خلق له أو لما ييسر له) وفي الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به فإن عمله أمارة إلى ما يؤول إليه أمره غالباً وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك كما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره لكن لا اطلاع له على ذلك فعليه أن يبذل جهده ويجاهد نفسه في عمل الطاعة ولا يترك وكولاً إلى ما يؤول إليه أمره فيلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة.

٣ ـ باب الله أعلم بما كانوا عاملين

٦٥٩٧ ـ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: «سُئلَ النبي ﷺ عن أولادِ المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

٦٥٩٨ ـ عن أبي هريرةَ قال: «سُئلَ رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

٦٥٩٩ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفِطرةِ فأبواه يُهوِّدانه ويُنصرانه. كما تُنتِجون البهيمةَ، هل تجدونَ فيها من جَدعاء حتى تكونوا أنتم تَجدعونَها».

٦٦٠٠ ـ «قالوا: يارسولَ الله، أفرأيتَ من يموت وهو صغير، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

قوله (باب الله أعلم بما كانوا عاملين) الضمير لأولاد المشركين كما صرح به في السؤال.

٤ ـ باب {وكَانَ أمرُ اللّهُ قَدَراً مَقْدُوراً} /الحزاب:٣٧/.

٦٦٠١ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسألِ المرأةُ طلاقَ أختِها لتستَفرغَ صَحفتها ولتَنكِح فإن لها ما قُدِّر لها».

٦٦٠٢ ـ عن أسامةَ قال: «كنت عندَ النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناتهِ -وعندَه سعدٌ وأبيٌّ بن كعبٍ ومعاذ- أن ابنَها يجود بنفسه، فبعثَ إليها: لله ما أخذَ ولله ما أعطى، كلٌّ

بأجَل، فلتصبر ولتَحتَسب».

٦٦٠٣ - عن عبدِ الله بن مُحيريزِ الجُمحيِّ «أن أبا سعيدِ الخدريَّ أخبرَهُ أنه بينما هو جالسٌ عندَ النبيِّ ﷺ جاءَ رجلٌ من الأنصار فقال يا رسولَ الله، إنا نُصيبُ سَبياً ونحبُّ المالَ، كيفَ ترَى في العَزلِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: أوَ إنكم تَفعلونَ ذلك؟ لا عليكم ألا تَفعلوا، فإنه ليست نَسمةٌ كتبَ اللهُ أن تَخرُجَ إلا هيَ كائنة».

٦٦٠٤ - عن حذيفة رضيَ الله عنه قال: لقد خطَبَنا النبيُّ ﷺ خطبةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعةِ إلا ذكرَه، عَلِمهُ من عَلِمَهُ وجَهله من جَهِلَهُ، إن كنتُ لأرى الشيءَ قد نَسيتهُ، فأعرفهُ كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غابَ عنه فرآهُ فعرَفه».

٦٦٠٥ - عن عليٍّ رضيَ الله عنه قال: «كنّا جُلوساً معَ النبيِّ ﷺ ومعهُ عودٌ ينكتُ به في الأرض فنكس وقال: ما منكم أحد إلا قد كتبَ مَقعدهُ من النار أو منَ الجنَّة. فقال رجلٌ منَ القوم: ألا نتكلُ يا رسولَ الله؟ قال: لا، اعملوا فكلٌّ مُيسر، ثم قرأ {فأما مَن أعطى واتقى} الآية».

قوله (باب وكان أمر الله قدراً مقدورا) أي حكما مقطوعاً بوقوعه، والمراد بالأمر واحد الأمور المقدرة ويحتمل أن يكون واحد الأوامر، لأن الكل موجود بكن.

قال ابن العربي: في هذا الحديث من أصول الدين السلوك في مجاري القدر، وذلك لا يناقض العمل في الطاعات ولا يمنع التحرف في الاكتساب والنظر لقوت غد وإن كان لا يتحقق أنه يبلغه. وقال: ابن عبد البر: هذا الحديث من أحسن أحاديث القدر عند أهل العلم لما دل عليه من أن الزوج لو أجابها وطلق من تظن أنها تزاحمها في رزقها فإنه لا يحصل لها من ذلك إلا ما كتب الله لها سواء أجابها أو لم يجبها، وهو كقول الله تعالى في الآية الأخرى {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}».

قوله (فنكَّس) أي أطرق.

قوله (ألا نتكل يا رسول الله) وزاد في رواية منصور وكذا في رواية شعبة «أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل» أي نعتمد على ما قدر علينا.

قوله (اعملوا فكل ميسر) وحاصل السؤال: ألا نترك مشقة العمل فإنا سنصير إلى ما قدر علينا، وحاصل الجواب: لا مشقة لأن كل أحد ميسر لما خلق له، وهو يسير على من يسره الله، قال الطيبي: الجواب من الأسلوب الحكيم، منعهم عن ترك العمل وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية وزجرهم عن التصرف في الأمور المغيبة فلا يجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقلاً لدخول الجنة والنار بل هي علامات فقط.

٥ ـ باب العملُ بالخَواتيم

٦٦٠٦ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «شهدنا مع رسولَ الله ﷺ خيبرَ، فقال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ ممن معه يَدَّعي الإسلامَ: هذا من أهلِ النار. فلما حَضرَ القتالُ قاتلَ الرجلُ من أشدِّ القتال، وكثُرَت به الجراحُ فأثبتَتْه؛ فجاء رجلٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ الذي تحدَّثتَ أنه من أهل النار؟ قاتلَ في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح. فقال النبيُّ ﷺ: إنهُ من أهل النار؛ فكاد بعضُ المسلمين يَرتاب، فبينما هو عَلَى ذلك إذ وَجدَ الرجلُ ألَم الجراح، فأهوَى بيده إلى كِنانته فانتزعَ منها سَهماً فانتحَرَ بها، فاشتدَّ رجالٌ من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسولَ الله، صدَّق اللهُ حديثك، قد انتحرَ فلانٌ فقتلَ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: يا بلالُ، قم فأذن: لا يدخلُ الجنة إلا مؤمن. وإنَّ اللهَ لَيؤيِّد هذا الدين بالرجلِ الفاجر».

٦٦٠٧ ـ عن سهلِ بن سعدٍ أنَّ رجلاً من أعظم المسلمين غَناءً عنِ المسلمينَ في غزوةٍ غزاها مع النبي ﷺ، فنظرَ النبيُّ ﷺ فقال: «من أحبَّ أن يَنظرَ إلى رجل من أهلِ النار فلينظر إلى هذا، فاتبعَهُ رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين حتى جُرِحَ فاستعجلَ الموتَ، فجعل ذُبابة سيفهِ بين ثَدَييه حتى خرجَ من بين كتَفيه، فأقبلَ الرجلُ إلى النبي ﷺ مُسرعاً فقال: أشهد أنكَ رسولُ الله، فقال: وما ذاك؟ قال: قلتَ لفلان من أحبَّ أن ينظرَ إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غَناءً عنِ المسلمين، فعرفتُ أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرِح استعجلَ الموتَ فقتلَ نفسه. فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: إنَّ العبد ليعملُ عملَ أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويَعمل عملَ أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمالُ بالخواتيم».

قوله (باب العمل بالخواتيم) لما كان ظاهر حديث علي يقتضي اعتبار العمل الظاهر أردفه بهذه الترجمة الدالة على أن الاعتبار بالخاتمة، وذكر فيه قصة الذي نحر نفسه في القتال من حديث أبي هريرة ومن حديث سهل بن سعد، وقد تقدم شرحهما في غزوة خيبر من كتاب المغازي(١).

٦ ـ باب إلقاءِ العبدِ النذرَ إلى القدر

٦٦٠٨ ـ عن ابن عمرَ رضي اللهُ عنهما قال: «نهى النبيُّ ﷺ عن النذرِ وقال إنه لا يرُدّ شيئاً، وإنما يُستخرَج به من البخيل».

[الحديث ٦٦٠٨ - طرفاه في: ٦٦٩٢، ٦٦٩٣]

٦٦٠٩ ـ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يأتي ابنَ آدمَ النذرُ بشيءٍ لم يكن قد

(١) [كتاب المغازي باب / ٣٨ ح ٤٢٠٢ - ٣ / ٣٤٦]

قدَّرتُه، ولكن يُلقيهِ القَدَرُ وقد قدرتهُ له، أستخرِجُ به من البخيل».

[الحديث ٦٦٠٩ - طرفه في: ٦٦٩٤]

٧ ـ باب لا حَولَ ولا قوَّةَ إلا بالله

٦٦١٠ ـ عن أبي موسى قال: «كنّا مع رسولِ الله ﷺ في غَزاةٍ، فجعَلنا لا نَصعَدُ شَرَفاً ولا نَعلو شرفاً ولا نهبِط في وادٍ إلا رَفَعنا أصواتَنا بالتكبير. قال: فدنا منا رسولُ الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، اربَعوا على أنفُسكم، فإنكم لا تَدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعونَ سميعاً بصيرا. ثم قال: يا عبد الله بنَ قَيس، ألا أعلّمكَ كلمةً هي من كنوز الجنة: لا حَولَ ولا قوةَ إلا بالله».

قوله (لا حول ولا قوة إلا بالله) ترجم في أواخر الدعوات «باب قول لا حول» بالإضافة واقتصر هنا على لفظ الخبر واستغنى به لظهوره في أبواب القدر، لأن معنى لا حول لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله، وقيل معنى لا حول لا حيلة، وقال النووي: هي كلمة استسلام وتفويض وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً وليس له حيلة في دفع شر ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى.

قوله (اربَعوا) أي ارفقوا.

قال ابن بطال: كان عليه السلام معلماً لأمته فلا يراهم على حالة من الخير إلا أحب لهم الزيادة» فأحب الذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبري من الحول والقوة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر، وقد جاء في الحديث «إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله أسلم عبدي واستسلم».

قلت: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بسند قوي.

قوله (من كنوز الجنة) تقدم القول فيه: وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة، قال النووي: المعنى أن قولها يحصل ثواباً نفيسا يدخر لصاحبه في الجنة.

وأخرج أحمد والترمذي وصححه ابن حبان عن أبي أيوب» أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر على إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقال: «يا محمد مر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

٨ ـ باب المعصومُ مَن عَصمَ الله

{عاصمٌ} /هود:٤٣/: مانع قال مجاهد: {سُداً} عن الحق:/يس:٩/: يتردَّدون في الضلالة. {دَسّاها} /الشمس:١٠/: أغواها

٦٦١١ ـ عن أبي سعيد الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: ما استُخلِفَ خَليفةٌ إلا لهُ بِطانَتان:

بطانةٌ تأمرُه بالخير وتَحُضهُ عليه، وبطانةٌ تأمرهُ بالشرِّ وتحضُّه عليه، والمعصومُ مَن عَصَم الله».

[الحديث ٦٦١١ - طرفه في: ٧١٩٨]

قوله (المعصوم من عصم الله) أي من عصمه الله بأن حماه من الوقوع في الهلاك أو ما يجر إليه، يقال عصمه الله من المكروه وقاه وحفظه واعتصمت بالله لجأت إليه وعصمة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام حِفْظُهم من النقائص وتخصيصهم بالكمالات النفيسة والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة، والفرق بينهم وبين غيرهم أن العصمة في حقهم بطريق الوجوب وفي حق غيرهم بطريق الجواز.

٩ ـ باب {وحرمٌ[1] عَلَى قريةٍ أهلكناها أنهم لا يَرجعون} /الأنبياء:٩٥/

{أنه لن يُؤمن من قومِك إلا مَن قد آمن، ولا يَلدوا إلا فاجراً كفارا} /نوح:٢٧/.

وقال منصورُ بن النُّعمان: عن عِكرمة عنِ ابن عباس: وحِرمٌ بالحبشية وَجَب.

٦٦١٢ ـ عن ابن عباسٍ قال: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللمم مما قال أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ كتب على ابن آدمَ حظَّهُ من الزِّنا أدركَ ذلك لا مَحالة: فزنا العين النَّظر، وزنا اللسانِ المنطق، والنفس تَمنَّى وتَشتَهي، والفرج يصدِّق ذلك ويكذِّبه».

قوله (باب وحرم على قرية أهلكناها) كذا لأبي ذر وفي رواية غيره {وحرام} بفتح أوله وزيادة الألف وزادوا بقية الآية والقراءتان مشهورتان.

قوله (عن عكرمة عن ابن عباس: وحرم بالحبشية وجب) لم أقف على هذا التعليق موصولا.

قال الطبري: معناه أنهم أهلكوا بالطبع على قلوبهم فهم لا يرجعون عن الكفر، وقيل معناه يمتنع على الكفرة الهالكين أنهم لا يرجعون إلى عذاب الله.

قوله (باللمم) هو ما يلم به الشخص من شهوات النفس، وقيل هو مقارفة الذنوب الصغار، وقال الراغب: اللمم مقارفة المعصية ويعبر به عن الصغيرة، ومحصل كلام ابن عباس تخصيصه ببعضها، ويحتمل أن يكون أراد أن ذلك من جملة اللمم أو في حكم اللمم.

قوله (إن الله كتب على ابن آدم) أي قدر ذلك عليه أو أمر الملك بكتابته.

قوله (أدرك ذلك لا مَحالة) أي لا بد من عمل ما قدر عليه أنه يعمله، وبهذا تظهر مطابقة الحديث للترجمة، قال ابن بطال: كل ما كتبه الله على الآدمي فهو قد سبق في علم الله وإلا فلا بد أن يدركه المكتوب عليه، وإن الإنسان لا يستطيع أن يدفع ذلك عن نفسه إلا أنه يلام إذا واقع ما نهي عنه بحجب ذلك عنه وتمكينه من التمسك بالطاعة.

قوله (حظه من الزنا) إطلاق الزنا على اللمس والنظر وغيرهما بطريق المجاز لأن كل ذلك من مقدماته.

قوله (فزنا العين النظر) أي إلى ما لا يحل للناظر (وزنا اللسان المنطق) في رواية

---

(١) قراءة حفص عن عاصم «وحرام»

الكشميهني «النطق».

قال الخطابي: المراد باللمم ما ذكره الله في قوله تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم} وهو المعفو عنه.

وقال في الآية الأخرى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم} فيؤخذ من الآيتين أن اللمم من الصغائر وأنه يكفر باجتناب الكبائر.

وقال ابن بطال: تفضل الله على عباده بغفران اللمم إذا لم يكن للفرج تصديق بها فإذا صدقها الفرج كان ذلك كبيرة.

١٠ ـ باب {وما جَعَلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناس}

/الإسراء: ٦٠/.

٦٦١٣ ـ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما {وما جَعَلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناس} قال: «هيَ رؤيا عينٍ أُرِيَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيتِ المقدس. قال: والشجرة الملعونةَ في القرآن قال: هي شجرةُ الزَّقُّوم».

قوله (باب وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) ذكر فيه حديث ابن عباس، وقد تقدم في تفسير سورة سبحان مستوفى، ووجه دخوله في أبواب القدر من ذكر الفتنة، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي جعلها وقد قال موسى عليه السلام {إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء} وأصل الفتنة الاختبار ثم استعملت فيما أخرجه الاختبار إلى المكروه، ثم استعملت في المكروه: فتارة في الكفر كقوله {والفتنة أشد من القتل} وتارة في الإثم كقوله {ألا في الفتنة سقطوا} وتارة في الإحراق كقوله {إن الذين فتنوا المؤمنين} وتارة في الإزالة عن الشيء كقوله {وإن كادوا ليفتنونك} وتارة في غير ذلك، والمراد بها في هذا الموضع الاختبار على بابها الأصلي والله أعلم، قال ابن التين:وجه دخول هذا الحديث في كتاب القدر الإشارة إلى أن الله قدر على المشركين التكذيب لرؤيا نبيه الصادق فكان ذلك زيادة في طغيانهم حيث قالوا: كيف يسير إلى بيت المقدس في ليلة واحدة ثم يرجع فيها؟ وكذلك جعل الشجرة الملعونة زيادة في طغيانهم حيث قالوا كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ وفيه خلق الله الكفر ودواعي الكفر من الفتنة، وسيأتي زيادة في تقرير ذلك في الكلام على خلق أفعال العباد في كتاب التوحيد إن شاء الله تعالى.

والجواب عن شبهتهم أن الله خلق الشجرة المذكورة من جوهر لا تأكله النار، ومنها سلاسل أهل النار، وأغلالهم وخزنة النار من الملائكة وحياتها وعقاربها، وليس ذلك من جنس ما في الدنيا، وأكثر ما وقع الغلط لمن قاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، والله تعالى الموفق.

١١ ـ بابٌ تحاجَّ آدمُ وموسى عندَ اللّه

٦٦١٤ ـ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنتَ أبونا، خيَّبتنا وأخرجتَنا من الجنَّة. قال له آدمُ: يا موسى اصطفاكَ اللهُ بكلامه وخطَّ لكَ بيده، أتلومني على أمر قدَّرَهُ الله عليَّ قبلَ أن يخلُقَني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى. ثلاثاً».

قوله (باب تحاجَّ آدم وموسى عند الله) ليس قول البخاري «عند الله» صريحاً في أن ذلك يقع يوم القيامة فإن العندية عندية اختصاص وتشريف لا عندية مكان، فيحتمل وقوع ذلك في كل من الدارين، وقد وردت العندية في القيامة بقوله تعالى {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} وفي الدنيا بقوله ﷺ «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وقد بينت في كتاب الصيام أنه بهذا اللفظ في مسند أحمد.

عن أبي هريرة بلفظ «احتج آدم وموسى عند ربهما».

قوله (احتج آدم وموسى) وقد اختلف العلماء في وقت هذا اللفظ فقيل يحتمل أنه في زمان موسى فأحيا الله له آدم معجزة له فكلمه أو كشف له عن قبره فتحدثا أو أراه الله روحه كما أرى النبي ﷺ ليلة المعراج أرواح الأنبياء أو أراه الله له في المنام ورؤيا الأنبياء وحي ولو كان يقع في بعضها ما يقبل التعبير كما في قصة الذبيح، أو كان ذلك بعد وفاة موسى فالتقيا في البرزخ أول ما مات موسى فالتقت أرواحهما في السماء، وبذلك جزم ابن عبد البر والقابسي.

وذكر ابن الجوزي احتمال التقائهما في البرزخ واحتمال أن يكون ذلك ضرب مثل والمعنى لو اجتمعا لقالا ذلك، وخص موسى بالذكر لكونه أول نبي بعث بالتكاليف الشديدة، قال: وهذا وإن احتمل لكن الأول أولى، قال: وهذا مما يجب الإيمان به لثبوته عن خبر الصادق وإن لم يطلع على كيفية الحال، وليس هو بأول ما يجب علينا الإيمان به وإن لم نقف على حقيقة معناه كعذاب القبر ونعيمه، ومتى ضاقت الحيل في كشف المشكلات لم يبق إلا التسليم.

وقال ابن عبد البر مثل هذا عندي يجب فيه التسليم ولا يوقف فيه على التحقيق لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلا.

قوله (قبل أن يخلقني بأربعين سنة) قال ابن الجوزي: المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم قبل وجود المخلوقات كلها، ولكن كتابتها وقعت في أوقات متفاوتة، وقد ثبت في الصحيح يعني صحيح مسلم «إن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة» فيجوز أن تكون قصة آدم بخصوصها كتبت قبل خلقه بأربعين سنه، ويجوز أن يكون ذلك القدر مدة لبثه طينا إلى أن نفخت فيه الروح، فقد ثبت في صحيح مسلم أن بين تصويره طينا ونفخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة، ولا يخالف ذلك كتابة المقادير عموماً قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وقال المازري: الأظهر أن المراد أنه كتبه قبل خلق آدم بأربعين عاماً.

وقال النووي: المراد بتقديرها كتبه في اللوح المحفوظ أو في التوراة أو في الألواح، ولا يجوز أن يراد أصل القدر لأنه أزلي ولم يزل الله سبحانه وتعالى مريداً لما يقع من خلقه.

وكان بعض شيوخنا يزعم أن المراد إظهار ذلك عند تصوير آدم طينا فإن آدم أقام في طينته أربعين سنة، والمراد على هذا بخلقه نفخ الروح فيه.

قلت: وقد يعكر على هذا رواية الأعمش عن أبي صالح «كتب الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض» لكنه يحمل قوله فيه «كتبه الله على» قدره أو على تعدد الكتابة لتعدد المكتوب، والعلم عند الله تعالى.

قوله (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثاً) قال ابن عبد البر: هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحق في إثبات القدر وأن الله قضى أعمال العباد فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق في علم الله.

وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه له على ذلك نوع جفاء كما يقال ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي حتى كأنه لم يكن فلا يصادف اللوم من اللائم حينئذ محلا انتهى.

وهو محصل ما أجاب به المازري وغيره من المحققين، وهو المعتمد.

وقد أنكر القدرية هذا الحديث لأنه صريح في إثبات القدر السابق وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى فقالوا: لا يصح لأن موسى لا يلوم على أمر قد تاب منه صاحبه، وقد قتل هو نفساً لم يؤمر بقتلها ثم قال: رب اغفر لي، فغفر له، فكيف يلوم آدم على أمر قد غفر له؟ ثانيها لو ساغ اللوم على الذنب بالقدر الذي فرغ من كتابته على العبد ولا يصح هذا لكان من عوتب على معصية قد ارتكبها فيحتج بالقدر السابق ولو ساغ ذلك لانسد باب القصاص والحدود ولاحتج به كل أحد على ما يرتكبه من الفواحش، وهذا يفضي إلى لوازم قطيعة، فدل ذلك على أن هذا الحديث لا أصل له. والجواب من أوجه:

ثانيها: إنما حكم النبي ﷺ لآدم بالحجة في معنى خاص وذلك لأنه لو كانت في المعنى العام لما تقدم من الله تعالى لومه بقوله {ألم أنهكما عن تلكما الشجرة} ولا واخذه بذلك

حتى أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، ولكن لما أخذ موسى في لومه وقدم قوله له أنت الذي خلقك الله بيده وأنت وأنت لم فعلت كذا؟ عارضه آدم بقوله أنت الذي اصطفاك الله وأنت وأنت.

وحاصل جوابه إذا كنت بهذه المنزلة كيف يخفى عليك أنه لا محيد من القدر، وإنما وقعت الغلبة لآدم من وجهين: أحدهما أنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقاً في وقوع ما قُدر عليه إلا بإذن من الله تعالى فيكون الشارع هو اللائم، فلما أخذ موسى في لومه من غير أن يؤذن له في ذلك عارضه بالقدر فأسكته.

وللثاني أن الذي فعله آدم اجتمع فيه القدر والكسب، والتوبة تمحو أثر الكسب، وقد كان الله تاب عليه فلم يبق إلا القدر، والقدر لا يتوجه عليه لوم لأنه فِعْل الله ولا يسأل عمَّا يفعل.

ثالثها قال ابن عبد البر: هذا عندي مخصوص بآدم لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعاً كما قال تعالى: {فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه} فحسن منه أن ينكر على موسى معصية كما لو قتل أو زنى أو سرق: هذا سبق في علم الله وقدره عليَّ قبل أن يخلقني فليس لك أن تلومني عليه، فإن الأمة أجمعت على جواز لوم من وقع منه ذلك بل على استحباب ذلك كما أجمعوا على استحباب محمدة من واظب على الطاعة.

رابعها: إنما توجهت الحجة لآدم لأن موسى لامه بعد أن مات واللوم إنما يتوجه على المكلف ما دام في دار التكليف، فإن الأحكام حينئذ جارية عليهم، فيلام العاصي ويقام عليه الحد والقصاص وغير ذلك، وأما بعد أن يموت فقد ثبت النهي عن سب الأموات «ولا تذكروا موتاكم إلا بخير» أن مرجع أمرهم إلى الله، وقد ثبت أنه لا يثني العقوبة على من أقيم عليه الحد، بل ورد النهي عن التثريب على الأمة إذا زنت وأقيم عليها الحد، وإذا كان كذلك فلوم موسى لآدم إنما وقع بعد انتقاله عن دار التكليف، وثبت أن الله تاب عليه فسقط عنه اللوم، فلذلك عدل إلى الاحتجاج بالقدر السابق وأخبر النبي ﷺ بأنه غلب موسى بالحجة.

وفي الجملة فأصح الأجوبة الثاني والثالث، ولا تنافي بينهما فيمكن أن يمتزج منهما جواب واحد وهو أن التائب لا يلام على ما تيب عليه منه ولا سيما إذا انتقل عن دار التكليف.

وقد سلك النووي هذا المسلك فقال: معنى كلام آدم إنك يا موسى تعلم أن هذا كتب عليَّ قبل أن أخلق فلا بد من وقوعه، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم تقدر فلا تلمني فإن اللوم على المخالفة شرعي لا عقلي، وإذا تاب الله عليَّ وغفر لي زال اللوم فمن لامني كان محجوجاً بالشرع.

فإن قيل فالعاصي اليوم لو قال هذه المعصية قدرت على فينبغي أن يسقط عني اللوم قلنا الفرق أن هذا العاصي باق في دار التكليف جارية عليه الأحكام من العقوبة واللوم وفي ذلك له ولغيره زجرها وعظة فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف مستغن عن الزجر فلم يكن للومه فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل فلذلك كان الغلبة له.

قال الطيبي: مذهب الجبرية إثبات القدرة لله ونفيها عن العبد أصلاً، ومذهب المعتزلة بخلافه، وكلاهما من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد.

وفي هذا الحديث عدة من الفوائد غير ما تقدم: قال القاضي عياض ففيه حجة لأهل السنة في أن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد التي وعد المتقون ويدخلونها في الآخرة، خلافاً لمن قال من المعتزلة وغيرهم أنها جنة أخرى.

وفيه مشروعية الحجج في المناظرة لإظهار طلب الحق وإباحة التوبيخ والتعريض في أثناء الحجاج ليتوصل إلى ظهور الحجة وأن اللوم على من أيقن وعلم أشد من اللوم على من لم يحصل له ذلك.

وفيه مناظرة العالم من هو أكبر منه والابن أباه ومحل مشروعية ذلك إذا كان لإظهار الحق أو الازدياد من العلم والوقوف على حقائق الأمور.

وفيه حجة لأهل السنة في إثبات القدر وخلق أفعال العباد.

وفيه أن يغتفر للشخص في بعض الأحوال ما لا يغتفر في بعض كحالة الغضب والأسف وخصوصاً ممن طُبِع على حدة الخلق وشدة الغضب، فإن موسى عليه السلام لما غلبت عليه حالة الإنكار في المناظرة خاطب آدم مع كونه والده باسمه مجرداً وخاطبه بشدة لم يكن ليخاطب بها في غير تلك الحالة، ومع ذلك فأقره على ذلك وعدل إلى معارضته فيما أبداه من الحجة في دفع شبهته.

١٢ ـ باب لا مانعَ لما أعطى اللهُ

٦٦١٥ ـ عن وَرّاد مولى المغيرةِ بن شعبةَ قال: «كتب معاويةُ إلى المغيرةِ: اكتُب إليَّ ما سمعتَ النبيَّ ﷺ يقولُ خَلفَ الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول خَلفَ الصلاة: لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما مَنعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ».

قوله (باب لا مانع لما أعطى الله) هذا اللفظ منتزع من معنى الحديث الذي أورده، وأما لفظه فهو طرف من حديث معاوية أخرجه مالك.

ولمح المصنف بذلك إلى أنه بعض حديث الباب كما قدمته عند شرحه في آخر صفة

الصلاة[١]، وأن معاوية استثبت المغيرة في ذلك، وقد تقدم شرح الحديث مستوفى هناك.

١٣ ـ باب من تَعوَّذ بالله من دَرك الشقاء، وسوء القضاء

وقوله تعالى {قُلْ أعوذُ بربِ الفَلَق، من شرِّ ما خَلَق} /الفلق:١،٢/.

٦٦١٦ ـ عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «تَعوَّذوا بالله من جَهدِ البلاء، ودَركِ الشقاء، وسوءِ القضاءِ، وشماتةِ الأعداءُ».

قوله (وقوله تعالى: قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) يشير بذكر الآية إلى الرد على من زعم أن العبد يخلق فعل نفسه، لأنه لو كان السوء المأمور بالاستعاذة بالله منه مخترعاً لفاعله لما كان للاستعاذة بالله منه معنى، لأنه لا يصح التعوذ إلا بمن قدر على إزالة ما استعيذ به منه، والحديث يتضمن أن الله تعالى فاعل جميع ما ذكر، والمراد بسوء القضاء سوء المقضي كما تقدم تقريره مع شرح الحديث مستوفى في أوائل الدعوات.

١٤ ـ باب {يَحولُ بين المرء وقلبه} /الأنفال :٢٤/.

٦٦١٧ ـ عن عبد الله قال: كثيراً ما كان النبيُّ ﷺ يحلِف: «لا ومُقلّبِ القلوب».

[الحديث ٦٦١٧ - طرفاه في: ٦٦٢٨، ٧٣٩١]

٦٦١٨ ـ عن ابن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ لابنَ صيادٍ: «خَبَأْتُ لك خَبيئاً. قال: الدُّخ. قال: اخسَأْ فلن تَعْدوَ قدرك. قال عمر: ائذَن لي فأضرِبَ عنُقه. قال: دَعه، إن يكن هو فلا تُطيقه، وإن لم يكن هوَ فلا خيرَ لك في قتله».

قوله (باب يحول بين المرء وقلبه) كأنه أشار إلى تفسير الحيلولة في الآية بالتقلب الذي في الخير، أشار إلى ذلك الراغب وقال : المراد أنه يُلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك، قال ابن بطال ما حاصله: مناسبة حديث ابن عمر للترجمة أن الآية نص في أن الله خلق الكفر والإيمان، وأنه يحول بين قلب الكافر وبين الإيمان الذي أمره به فلا يكسبه إن لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر، وكذا في المؤمن بعكسه، فتضمنت الآية أنه خالق جميع أفعال العباد خيرها وشرها وهو معنى قوله «مقلب القلوب» لأن معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر وعكسه، قال: وكل فعل الله عدل فيمن أضله وخذله لأنه لم يمنعهم حقاً وجب لهم عليه، قال: ومناسبة الثاني للترجمة قوله «إن يكن هو فلا تطيقه» يريد أنه إن كان سبق في علم الله أنه يخرج ويفعل فإنه لا يقدرك على قتل من سبق في علمه أنه سيجيء إلى أن يفعل ما يفعل، إذ لو أقدرك على ذلك لكان فيه انقلاب علمه، والله سبحانه منزه عن ذلك.

---

(١) [كتاب الأذان باب / ١٥٥ ح ٨٤٤ - ١ / ٤٥٠]

١٥ - باب {قُل لن يُصيبنا إلا ما كتب اللهُ لنا}

/التوبة:٥١/:

قال مجاهد: {بفاتِنين} /الصافات :١٦٢/: بمضِلّين. إلا من كتَبَ اللهُ أنه يَصلى الجحيم. {قدَّرَ فهدى} /الأعلى:٣/: قدرٌ الشقاء والسعادة، وهدى الأنعامَ لمراتعها

٦٦١٩ - عن عائشةَ رضيَ الله عنها أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن الطاعون فقال: «كان عذاباً يَبعثه الله على مَن يشاءُ، فجعلهُ اللهُ رحمةً للمؤمنين، ما من عبدٍ يكون في بلدٍ يكون فيه ويمكثُ فيه لا يخرجُ من البلدِ صابراً مُحتسِباً يَعلمُ أنه لا يصيبه إلا ما كتبَ الله له إلا كان له مثلُ أجرِ الشهيد».

قوله (باب قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، قضى) فسر كتب بقضى وهو أحد معانيها وبه جزم الطبري في تفسيرها.

وقال الراغب: ويعبر بالكتابة عن القضاء الممضي كقوله {لولا كتاب من الله سبق} أي فيما قدره، ومنه {كتب ربكم على نفسه الرحمة} وقوله {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} يعني ما قدره وقضاه، قال: وعبر بقوله لنا ولم يعبر بقوله علينا تنبيها على أن الذي يصيبنا نعده نعمة لا نقمة، قلت: ويؤيد هذا الآية التي تليها حيث قال: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} وقد تقدم في تفسيره أن المراد الفتح أو الشهادة وكل منهما نعمة.

قال ابن بطال: وقد قيل أن هذه الآية وردت فيما أصاب العباد من أفعال الله التي اختص بها دون خلقه ولم يقدرهم على كسبها دون ما أصابوه مكتسبين له مختارين.

قلت: والصواب التعميم وأن ما يصيبهم باكتسابهم واختيارهم هو مقدور لله تعالى وعن إرادته وقع، والله أعلم.

قال الراغب: هداية الله للخلق على أربعة أضرب: الأول العامة لكل أحد بحسب احتماله وإليها أشار بقوله {الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}، والثاني الدعاء على ألسنة الأنبياء وإليها أشار بقوله {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} والثالث التوفيق الذي يختص به من اهتدى إليها أشار بقوله {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} وقوله {والذين اهتدوا زادهم هدى}، والرابع الهدايات في الآخرة إلى الجنة وإليها أشار بقوله {وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} قال: وهذه الهدايات الأربع مرتبة فإن من لا يحصل له الأولى لا تحصل له الثانية ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة ولا تحصل الرابعة إلا لمن حصلت له الثالثة ولا تحصل الثالثة إلا لمن حصلت له اللتان قبلها، وقد تحصل الأولى دون الثانية والثانية دون الثالثة، والإنسان لا يهدي أحداً إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون بقية الأنواع

المذكورة وإلى ذلك أشار بقوله تعالى {وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم} وإلى بقية الهدايات أشار بقوله {إنك لا تهدي من أحببت}.

ثم ذكر حديث عائشة في الطاعون وقد تقدم شرحه مستوفى في كتاب الطب[١]، والغرض منه قوله فيه: يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له.

١٦ ـ باب {وما كنا لنهتَدِيَ لو لا أن هدانا الله} الأعراف:٤٣/.

{لو أن الله هداني لكنتُ من المتقين} /الزمر:٥٧/.

٦٦٢٠ ـ عن البراءِ بن عزاب قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ يومَ الخندَقِ يَنقلُ معنا الترابَ وهوَ يقول:

والله لولا اللهُ ما اهتَدَيْنا ولا صُمنـا ولا صـلينـا فأنزِلن سكينةً علينا
وثَبتِ الأقدامَ إن لا قـينا والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا».

ثم ذكر حديث البراء في قوله «و الله لولا الله ما اهتدينا» الأبيات وقد تقدم شرحها في غزوة الخندق[٢].

(١) [كتاب الطب باب / ٣١ ح ٥٧٣٤ - ٤ / ٣٣٢]
(٢) [كتاب المغازي باب / ٢٩ ح ٤١٠٤ - ٣ / ٣١٢]